سعار الاحتلال الاسرائيلي يدمي الأراضي الفلسطينية والصمت العربي والدولي سيد الموقف

▫ رحيل عرفات وقافلة من رموز النضال الفلسطيني يوشح ٢٠٠٤م بالحزن
▫ سيناريوهات متباينة تنتظر القضية الفلسطينية وتضعها على المحك عام ٢٠٠٥م

والعام الذي بودعنا لم يحمل معه تغيرا في المواقف تجاه الخطر الذي تمثله اسرائيل وحكومة شارون المتغطرسة وكل محاولات الادانة لممارسات اسرائيل قوبلت بالفيتو الامريكي، ووحدها محكمة العدل الدولية قدمت انموذجا في نصرة الحقوق الفلسطينية وسجلت اختراقا طال انتظاره بقرارها الجريء باعتبار الجدار العازل الذي تبنيه الدولة العبرية في عمق الضفة الغربية غير قانوني ودعت الى ازالته.

رحيل رمز المناضلين

لاشك في ان رحيل الزعيم/ ياسر عرفات ترك فراغا كبيرا على امتداد الساحة السياسية والنضالية الفلسطينية تبعا للمسيرة الطويلة التي تركها الرجل في رحلته النضالية لاسترداد الحقوق المغتصبة وتحقيق حلم اقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس الشريف، رغم مارافق هذه المسيرة من تباين في اراء ومواقف الحركات والتنظيمات الفلسطينية بشأن سبل ذلك وطرق تحقيقه.

هذا الفراغ يضع الشعب الفلسطيني بكل تياراته امام اختبار حقيقي لقدرة اجتياز المرحلة بسلاسة تحفظ مكاسبهم النضالية ووحدتهم في مواصلة هذه المسيرة في مرحلة حساسة جدا وخطيرة لمستقبل القضية الفلسطينية والتي ستكون على المحك اكثر من اي وقت مضى بعد ان ترجل من كان يحظى باجماع كبير واحترام من قبل معارضيه ومؤيديه على المستوى الفلسطيني والعربي والدولي.

وخلال الفترة القصيرة التي أعقبت رحيل عرفات اثبت الفلسطينيون قدرة فائقة على تجاوز المصاعب والتسامي على الجراح رغم محاولات اسرائيل للزج بالفلسطينيين الى التصادم لتبرير حلقات مسلسلها الارهابي بعد غياب عرفات وحاولت اطلاق التكهنات بقدم الأيام تارة بالترحيب بالقيادة الجديدة واخرى بالتراجع لتحريك اسطواناتها المشروخة والقول بعدم فعل شيء لمكافحة الارهاب الذي تعتبره ضرورة لتكوين الثقة بالقيادة الجديدة لكنها لم تستمر طويلا في هدوئها وسرعان ماعادت الى سابق عهدها في مجزرة خان يونس مطلع ديسمبر الذي راح ضحيتها اكثر من عشرين شهيدا ودمارا كبيرا في المدينة واعاقتها لماراثون الانتخابات الفلسطينية.

اسرائيل ستعمل على استثمار هذه التحولات التي بدأت التحضير لها حتى قبل رحيل المناضل عرفات عبر محاولات تحييده عن المشهد السياسي وعملية التسوية المجمدة اكان ذلك من خلال الدعوات لاحلال قيادات بديلة والقول بانه كان يشكل عائقا امام السلام.. او من خلال القوة العسكرية التي افضت الى اعادة احتلال كامل الضفة الغربية وفرض حصار عليه في مقره برام الله على مدى الثلاث السنوات الماضية ولم تحقق عبرها نتائج رغم ما لاقته ممارساتها من دعم ادارة الرئيس الامريكي جورج بوش وتناغمها الكبير مع حكومة ارئيل شارون منذ صعودهما المتقارب في مطلع العام ٢٠٠٠م والتراجع الكبير الذي شهدته عملية التسوية والعد التنازلي لها في اعقاب فشل قمة كامب ديفيد الثانية.

وهكذا فإن اسرائيل ستمضي بالتاكيد في العزف على هذا الوتر لتبرر مواقفها خلال الاربع السنوات الماضية ولتظهر بمظهر الساعي الى السلام لولا ان عرفات كان يعيق تحركها وربما تذهب الى اتخاذ تدابير هامشية وتضخيمها لتبدو وكأنها تقدم خطوة في اتجاه تحريك العملية السلمية مع الفلسطينيين ومن ذلك ابراز خطة فك الارتباط المزمعة واخلاء المستوطنات في قطاع غزة وكأنها تقدم تنازلات لصالح الفلسطينيين بعيدا عن حقيقة هذه الخطة التي تهدف اساسا الى تكريس الاحتلال في الضفة الغربية وربما تقطع الطريق نهائيا على قيام دولة فلسطينية مستقلة قابلة للحياة ومترابطة وعاصمتها القدس الشرقية.

احداث دامية

وبالمرور سريعا على احداث العام ٢٠٠٤م في الاراضي الفلسطينية المحتلة نجد انه كان الاكثر دموية وعدوانية حيث عملت اسرائيل على تحويله الى عام للدمار واستهداف رموز الحركة الوطنية الفلسطينية حيث بدأته بمحاولة اغتيال احد زعماء حماس واعقبته بمجزرة حي الشجاعية شرق غزة ومخيمي البريج والعصيرات واغتيال الشيخ احمد ياسين الزعيم الروحي لحماس وبعد شهر من هذه العملية الاجرامية اغتالت خلفه الدكتور / عبدالعزيز الرنتيسي والى آخر القائمة من الشهداء الذين استهدفتهم اسرائيل اغتيالا او نتيجة للاعتداءات المتكررة في مدن وقرى الضفة الغربية وقطاع غزة على مدار العام.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل ان حكومة ارئيل شارون وجزارات الاحتلال استخدموا خلال ٢٠٠٤م كل مافي جعبتهم من صنوف العدوان بدءاً بالتدمير والقتل المباشر وتجريف الاراضي ومصادرتها ووضع الحواجز وبناء الجدران كما هو الحال بالنسبة لجدار الفصل العنصري الذي يمزق الضفة الغربية ويضعها في كانتونات عوضا عن عزل القدس تماما عن محيطها العربي والفلسطيني .. لكن ذلك السعار لم ينل من عزيمة الفلسطيني الصابر المجاهدمن تلقين الاحتلال دروساً لن ينساها واحداث تحول كبير في اساليب المقاومة بابتكارات جديدة اكانت من خلال قض مضاجعها بصواريخ متطورة او تنفيذ عمليات جريئة مثل عملية ميناء اشدود في مارس او عملية النفق في غزة التي ادت الى مصرع جنود اسرائيليين واصابتهم بالصدمة ومابينهما من عمليات اثبتت عدم قدرة اسرائيل على كسر شوكة الفلسطينيين.

«خارطة الطريق» إلى أين ؟

خارطة الطريق التي طرحت في يونيو ٢٠٠٣م بهدف تحقيق سلام دائم بين الفلسطينيين والاسرائيليين على ثلاث مراحل لم تتحرك خطوة واحدة وظلت على مدار العام أسيرة للعدوان الاسرائيلي المتواصل والتسويف المستمر في محاولات لرمي الكرة الى الملعب الفلسطيني وتحميله مسئولية التعثر في حين الانحياز الامريكي الكامل لتل ابيب وضعف الدور الاوروبي والروسي والامم المتحدة الذين اعدوا مع واشنطن خطة الخارطة مكن اسرائيل من التحكم بمفاتيح هذه الخطة بل وافراغها من محتواها بعد ان كانت رفضتها في السابق.

ورغم ان محاولات كثيرة بذلت لتمهيد الطريق امام تنفيذ ماورد في خطة الخارطة سواء من جانب الفلسطينيين او اللجنة الرباعية او دول عربية إلا ان مواصلة اسرائيل لاعتداءاتها اليومية لم يترك مجالاً للتهدئة وخلق أجواء مناسبة للبدء الفعلي بتنفيذ الالتزامات حيث اعلن الفلسطينيون هدنة من جانب واحد سرعان ما انهارت تحت ضربات الاباتشي ومجنزرات الاحتلال وصواريخه التي لم تتوقف يوماً على مدار العام اضافة الى ان شارون وجنرالاته اغلقوا كافة منافذ الحوار واستهدفوا رموز النضال الفلسطيني بالاغتيال والتهديد به واخيرا الترويج لخطة مايسمى بفك الارتباط احادية الجانب والهادفة لازالة ٢١ مستوطنة من قطاع غزة واربع من اصل ١٢٠ جيباً استيطانياً في الضفة الغربية.

خطة شارون هذه وضعت عملياً نهاية لخطة خارطة الطريق المتعثرة اصلا حيث استطاع اقناع واشنطن بان خطته لن تكون بديلا للخارطة رغم ان / جورج بوش اعلن ان خطة خارطة الطريق لاتزال الاساس في ولايته الثانية وفي حال حقق شارون خطته وانسحب من غزة بشكل احادي دونما اطار تفاوضي فإنه يضع بذلك حسب عدد من المحللين نهاية لمسيرة التسوية عبر تجميد قيام دولة فلسطينية لأجل غير مسمى وكذلك منع استئناف مفاوضات السلام مع الفلسطينيين.

وهكذا فإن سيناريوهات عدة تنتظر مستقبل القضية الفلسطينية البعض متفائل بامكانية تجاوز المرحلة السابقة والدخول في اخرى اكثر ايجابية لتحقيق اهداف وآمال الفلسطينيين وهم يعولون على ذلك ويدعمون حججهم بان الانتخابات القادمة ستكون تحولا في اتجاه تمهيد الطريق لاستئناف المفاوضات بينما البعض الآخر متشائم ولايرى في ان المستقبل يحمل كثيراً للفلسطينيين ويعزون ذلك الى موقف اسرائيل تجاه الحلم الفلسطيني ولن تفعل كثيرا لتحقيقه كونها مجربة تجاه هذا الأمر ولاتعطي وزنا للالتزامات والاتفاقيات المبرمة خلال العقد الماضي ومامزاعمها بان عرفات وماتسميه بالارهاب هو المعوق حيال انجاز تسوية مع الفلسطينيين إلا محاولة يائسة لتغطية فشلها في استبعاب مبدأ التسوية ذاته وتعمل على تحقيق أهدافها التوسعية من خلال هذا التسويف المشوه وبالتالي فإن سيناريوهات المستقبل ستظل مانعة وغير واضحة المعالم مالم يكون هناك ضغط جدي وقبول جاد بعيد اسرائيل الى مسار التسوية وفقا لقرارات الشرعية الدولية ووجود راع نزيه لهذه العملية .

لندن.. مؤتمر دولي

لندن حاولت اواخر العام رفع مستوى الجهود الدولية الساعية لاحياء عملية السلام في الشرق الاوسط وفعلت ذلك بضوء امريكي واضح اذ زار رام الله رئيس الوزراء البريطاني/ توني بلير في بداية الثلث الاخير من ديسمبر وهو ارفع مسئول غربي يزور الاراضي الفلسطينية منذ وفاة الزعيم ياسر عرفات حيث اعطى بلير لاستئناف عملية السلام الفلسطينية الاسرائيلية اولوية في السياسة الخارجية للندن مع وعد بالعمل جديا لتأمين استمرار مشاركة الرئيس الأمريكي جورج بوش في العملية .

بلير اعلن من هناك عن عقد مؤتمر دولي للسلام تستضيفه لندن في فبراير المقبل اقتصر هدفه في تعزيز ودعم القيادة الفلسطينية الجديدة التي ستاتي في أعقاب انتخابات التاسع من يناير المقبل بعد ان جاء الرد الاسرائيلي على عقد المؤتمر فاترا واعلنت عدم حضورها المؤتمر لكنها تؤيد الهدف المعلن له وهو دعم الاصلاحات السياسية والمالية والامنية الفلسطينية بمعنى انها تعول عليه ان يكون بمثابة اداة ضغط على الفلسطينيين فقط لترويضهم واعادتهم الى جادة الصواب كما تزعم وهي التي لطالما عارضت فكرة عقد مؤتمرات دولية عن الشرق الاوسط خشية ان تتحول هذه المؤتمرات الى منبر للضغط عليها للقيام بما تعتبره تنازلات خطيرة في المجال الامني وتسعى فقط الى حشر الفلسطينيين في الزاوية وتحميلهم تبعات تردي الاوضاع في المنطقة بينما تضع نفسها خارج نطاق المسئولية.

الاصلاحات لم تغب عن الساحة الفلسطينية رغم المحاولات الاسرائيلية المتواصلة لعرقلتها وبدأ من تعيين / احمدقريع (ابو علاء)رئيسا للوزراء خلفا لـ/ محمود عباس (ابو مازن) الذي استقال من منصبه او اجراء انتخابات داخل المجلس التشريعي وانتخاب / روحي فتوح رئيسا للمجلس التشريعي او المضي في تسجيل الناخبين والاعداد للانتخابات التي جرى جزء منها على المستوى البلدي في الضفة الغربية مؤخرا كما تجري الاستعدادات حاليا لاجراء انتخابات رئاسية في التاسع من يناير ستكون تدشينا للعام الجديد وربما تشكل منعطفا هاما في مسار النضال الفلسطيني وترسم معالم المرحلة القادمة.

كذلك لم تتوقف الحوارات الفلسطينية الفلسطينية حيث جرت عدة جولات في القاهرة للاتفاق على اطار عام بين كافة الفصائل سواء المنضوية تحت مظلة منظمة التحرير الفلسطيني او تلك التي خارجها مثل حماس والجهاد وهو امر عزز من الوحدة الفلسطينية وقطع الطريق امام محاولات اسرائيل للنيل منها بضرب الفصائل بعضها ببعض حيث شهدت غزة مثل هذه المظاهر التي سرعان ماتم احتوائها.. كذلك فإن التحرك المصري تواصل خلال هذا العام وقام وزير الخارجية ومدير المخابرات المصريين بعدة جولات في رام الله وكذلك اسرائيل وهي جهود اشاد بها الفلسطينيون واعتبروها تاتي في أطار التنسيق مع القاهرة بشأن عدد من القضايا ومنها تامين الانسحاب الاسرائيلي المزمع من غزة.

تحيز وصمت

التحيز الامريكي وتحديداً ادارة بوش لاسرائيل وضعف تدخل المجتمع الدولي وصمت اخرون وتخاذل العرب في نصرة الشعب الفلسطيني ظلت مهيمنة على الساحة في العام ٢٠٠٤م وهو ما اتاح للدولة العبرية وحكومة شارون لاخذ زمام المبادرة بيدها وبقوتها وتستفرد بالفلسطينيين شعبا وقيادة ورموزا وتدفع بالملايين الى حافة الفقر والفاقه وتسلبهم قياداتهم النضالية وارضهم وابسط اسس حياتهم.

وفي حال لم يتغير هذا الميزان ويتحرك المجتمع الدولي والعرب في المقدمة لاستمرت اسرائيل في طغيانها مهما حاول الفلسطينيون تمهيد الطريق وتلبية المطالب الاسرائيلية فهذه الاخيرة قادرة على ابتداع مطالب اخرى تعجيزية لتستمر في مسلسلها الدموي وتقطع الطريق امام تنفيذ استحقاقات السلام وهو مايبدو ان شارون بدأ يستشعره فهرب الى الائتلاف مع حزب العمل علّه يجد فيه المنقذ والسند لبقاء حكومته خلال هذه الفترة قبل ان يعاود الكرة ويطيح بكل امال السلام.

الاكيد ان العام ٢٠٠٤م ترك بصماته على مسار الحركة الوطنية الفلسطينية وسيظل شاهدا تاريخيا وعلامة فارقة في مسيرة النضال الفلسطيني الذي غاب عنها الزعيم الراحل/ ياسر عرفات.. ولكن ترى ماذا يحمل العام القادم وهل سيكون افضل من سابقه لناحية تحقيق الحلم الفلسطيني في اقامة الدولة بعد رحيل الاحتلال ام ان الحال سيظل على ماهو عليه طالما الاحتلال الاسرائيلي جاثم على ارض فلسطين وسياسة المراوغة والتهرب من استحقاقات السلام ديدن حكوماته المتعاقبة المدعومة امريكيا خاصة مع عودة بوش وادارته للرئاسة لاربع سنوات قادمة.

و بدون الدعم الجاد والمستمر للفلسطينيين ومناصرتهم عربيا واسلاميا وجر المجتمع الدولي وخاصة الرباعية الامم المتحدة وروسيا والاتحاد الاوروبي والولايات المتحدة وخاصة هذه الاخيرة الى لعب دور اكبر في عملية التسوية واقناعها بضرورة الضغط على تل ابيب لتنفيذ التزاماتها تجاه الفلسطينيين واعادتها الى مسار السلام فإن العام ٢٠٠٥م لن يشذ عن سابقيه ولن يقدم للشعب الفلسطيني مؤشرات امل للسلام بل سيجعلهم في وضع المهرول دونما ضوء في نهاية النفق الذي تمثله اسرائيل بالعوائق والعراقيل كونها في حقيقة الامر غير مستعدة للتسوية وغير مستعدة للعيش بسلام مع جيرانها لكن هذه العام ربما يسقط الاقنعة ويظهر اسرائيل على حقيقتها في عيون الغرب بعد ان ظلت تعلق ممارساتها العدوانية على مشجب الارهاب.

■ كان العام ٢٠٠٤م قاسياً على الشعب الفلسطيني ومسيرة نضاله لاسترجاع حقوقه المغتصبة واقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس الشريف فمن جهة كان الأكثر مأساوية من حيث غياب رموز نضالية كبيرة البعض استهدفتهم اسرائيل اغتيالا وآخرون غيبهم القدر ومن جهة اخرى شهدت الاوضاع في الاراضي الفلسطينية ترديا ملفتا جراء الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة والاجراءات التعسفية من حصار وتدمير لأسس الحياة وبناء الجدران العازلة.

رصد وتحليل/ نبيل نعمان